صحف مطوية من التاريخ الاسلامي

٢ ـ العرب فى غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

انتشرت المستعمرات والمعاقل العربية خلال القرن العاشر فى بروفانس وساڤوا وپيمون وسويسره كما بينا ، وبسط العرب سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللومبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسره ، وبلغوا فى تقدمهم فى غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا فى سويسرا ولاية ڤاليه ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا فى ايطاليا الشمالية ولاية ليجوريا . وكانت معاقلهم فى بروفانس ولا سيما حصن « فركسنيه » قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة فى سهول پيمون فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية لتكون مركز غزواتهم فى بلاد اللومبارد وفى سويسره ؛ فان الرواية الكنسية التى كتبها حبر معاصر من دير نوڤاليس تذكر لنا اسم حصن عربى فى تلك الأنحاء وتسميه « فراشنديلوم Fraschendellum » ؛ والظنون أنه هو المكان الذى تعرفه الجغرافية الحديثة باسم « فراسنيتو » وهو الواقع فى لومبارديا على مقربة من نهر « پو » . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانياً من سادة تلك الأنحاء يدعى أيمون دفعه شغف المغامرة والكسب إلى مخالفة العرب ، فانضم إليهم واشترك فى غاراتهم الناهبة ، وفى ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً عربياً استحسنها وانتزعها منه قسراً ؛ فغضب إيمون ، والتجأ إلى كونت روتبالدوس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سراً فى محاربة العرب وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم العرب فى پيمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم فى يد النصارى ، وذهب سلطانهم فى تلك الأنحاء

وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لأهلاك العرب النازلين فى أملاكه ، فى چورا وعلى حدود برجونيه ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الاغارة والعيث فى تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى العرب يستحثهم لقتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضى والضياع الخصبة ؛ وكتب مثل ذلك إلى العرب يستحثهم لقتال المجر والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ؛ فالتقت الجموع المتنافسة من العرب والمجر ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الواقعة فى سنة ٩٥٢ م ؛ ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها (١)

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك العرب المستعمرين المغامرين فى الأفول ، وتضمحل سيادتهم فى تلك الأنحاء ؛ بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك يحتلون كثيراً من مواقع ساڤوا ؛ ويجوبون أنحاء سويسرا كلها فى طلب الغنيمة والسبى . وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ؛ ولبثوا فى توغلهم فى سويسره مدينة سان جال على مقربة من بحيرة كونستانس ، وانشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج التى مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً فى سان جال ، حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا العرب فى جوف الليل ومزقوهم قتلاً وأسراً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات العربية فى شمال سويسرا

واستمرت المستعمرات والمعاقل العربية فى دوفينه وبروفانس وبعض جهات الألب ؛ وكان قربها من « فركسنيه » أمنع المعاقل العربية عدها بأسباب الجرأة والعون ، وعدها قربها من البحر دائماً بامداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وأفريقية

* * *

فى ذلك الحين كان أعظم أمراء النصرانية أوتو الكبير (أوتون) ملك ألمانيا ، وكان أعظم أمراء الاسلام عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ؛ وكان للناصر مع معظم أمراء النصرانية ، من امبراطور بيزنطية الى ملوك الشمال والغرب ، علائق سياسية منظمة ؛ وكانت له مع أوتو الكبير علائق ومراسلات . فلما رأى أمراء

(١) Bouquet, T. IX p. 6 — Reinaud, Ibid, p. 128

غاليس أنهم لا يستطيعون رد العرب عن أملاكهم وأراضيهم ، سعوا الى الامبراطور أوتو زعيم النصرانية أن يعاونهم بمفاوضته الناصر زعيم الاسلام فى انقاذهم من هذا النير المزعج ؛ وكان المفهوم دائماً أن حكومة قرطبة تحمى هـذه المستعمرات العربية النائية وتمدها بعونها الأدبى على الأقل . فعول الامبراطور أوتو على السعى لدى الناصر فى تحقيق هذه الغاية ؛ وأوفد اليه فى سنة ٩٥٦ سفارة على رأسها حبر يدعى « چان » فقصد الى إسبانيا عن طريق فرنسا ، ووفد على قرطبة يحمل بعض التحف والهدايا طبقاً لرسوم العصر ، واستقبل بحفاوة بالغة وأنزل فى منزل خاص ريثما يستقبله الخليفة . وتتفق الروايات العربيـة والنصرانية فى وصف مظاهر العظمة والبهاء التى كانت تبدو بها قرطبة ، ويبدو بهما البلاط الاموى يومئـذ[1] . وتقص علينا الرواية الكنسية المعاصرة تفاصيل هذه السفارة ، فتقول : إن الناصر لم يستقبل سفير أوتو فى الحال ، وإنه كان يحقد على أوتو لأنه تعرض فى بعض مراسلاته للاسلام ، ولأنه كان قد اعتقل مدى حين سفيراً نصرانياً أرسله اليه الناصر ، ولذلك أمر الناصر باعتقال السفير (چان) حتى يرسل سفيراً الى أوتو يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ؛ واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة ، وكان أوتو يومئذ يشتغل ببعض الحروب الداخلية ، فأبدى تساهلاً فى قبول وجهات نظر الخليفة . ولما عاد السفير ، ارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وإذن برؤية سفير الامبراطور ؛ فاستقبل استقبالاً فخماً ظهرت فيه عظمة البلاط الأموى ؛ وتحدث الى الناصر عن الغرض من سفارته . ولا نعرف ماذا كانت نتيجة هذه السفارة ، لأن الرواية الكنسية لا تحدثنا عن ذلك ؛ ولكن المرجح أن وجهة النظر التى أبدتها حكومة قرطبة هى أنها ليست لها علاقة بالمستعمرات العربية فى غاليس ، وانها لا تحتمل تبعة أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل لديها : وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس لم تكن تعنى كثيراً بشأنها ، وإن كانت بلا ريب تنظر الى غزواتها وتوغلها فى الأراضى النصرانيـة بعين العطف . على أن لوتبراند ، وهو مؤرخ كنسى معاصر يؤكد أن الخليفة كان يحمى هذه المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون[1]

وبعد ذلك بقليل (فى نحو سنة ٩٦٠) أخرج العرب من معاقلهم فى آكام سان برنار ؛ ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ؛ ولكن المحقق أن العرب أبدوا كعادتهم منتهى البسالة فى الدفاع عن مواقعهم ؛ والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذى سميت هذه الآكام باسمه كان من أبطال الموقعة التى نشبت وانتهت بجلاء العرب

واستمر العرب فى دوفينه وبروڤانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الامبراطور أوتو بلاد اللومبارد ، وأخرج منها ملكها بيرانجيه ، التجأ ولده أدالبرت الى عرب « فراكسنيه » ليعاونوه فى استعادة ملكه . وكان هذا التحالف بين السادة والعرب يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما آذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت فى الاضمحلال منذ فقد العرب معاقلهم فى بلاد الألب . وفى سنة ٩٦٥ م أخرج العرب من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصب (جرزيفودان) وطوردوا فى تلك النواحى وساءت أحوالهم ؛ وأعلن الامبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة ، وهو يومئذ فى ايطاليا أنه سيتولى طرد العرب من الأراضى النصرانية ، ولكنه توفى دون القيام بمشروعه

ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة ، وحدث فى ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت هو سان مايول ، وهو أسقف دير كلونى من أعمال برجونيه ، حج الى رومه ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره العرب المرابطون فى الجبال مع جماعة كبيرة من الحاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ؛ فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان مايول وزملاؤه . ولما عاد سان مايول الى مقامه دعا مواطنيه الى إنقاذ البلاد من عيث الغزاة ، وأذكى حماستهم وسخطهم ، وذاعت قصة أسره وما يعانيه الحاج من شر العرب وعدوانهم ، فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوبون (أو بيفون) ، وانتهز فرصة الحماسة العامة ، وجمع حوله كثيراً من القاتلة ، وبنى

(١) راجع فى وصف هـذه المظاهر التى شهدها سفراء النصرانية — نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٠ — ١٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ — وراجع Reinaud; ibid., p. 188 — 189

(١) Reinaud; ibid; p. 193

حصناً فى سسترون على مقربة من حصن كان يملكه العرب ، ولبث يتحين الفرص لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصارى العرب فى حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسرا (سنة ٩٧٢ م)

وفى الوقت نفسه التف النصارى فى دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا العرب فى جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم فى كل ناحية ، وبذا انهارت سيادتهم فى دوفينه ولم تبق إلا فى بروفانس . ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه على بروفانس وتلقب بألقاب الأمارة ، واعتزم أن يخرج العرب نهائياً من تلك الأرض ؛ فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى العرب أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام الى البسيط فى صفوف متراصة ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة فى «تورتور» ؛ فهزم العرب ، وارتدوا الى قلاعهم ، ولا سيما « فركسنيه » التى غدت ملاذهم الأخير ؛ فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ؛ فحاولوا الفرار تحت جنح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً وأبقى على من استسلم منهم ، وعلى المسلمين الذين كانوا يحترفون الزرع فى الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقى نسلهم فى تلك الأرض طويلاً

وهكذا سقط حصن « فراكسنتم » أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية فى غاليس ؛ وقسمت أسلاب العرب وأراضيهم بين السادة والجند الذين اشتركوا فى هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب فى تلك الأنحاء

أما المستعمرات العربية التى كانت مبعثرة فى آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت فى نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية ؛ ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت فى معاقلها نحو جيل آخر ، حتى تولى مطاردتها وسحقها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة العرب فى غاليس وسويسره ؛ ولم يجب أحد فى أوربية والأندلس صريخ الغوث الذى وجهه أولئك المستعمرون البواسل الى اخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية فى تلك البلاد ؛ ففى سنة ١٠٠٣م ، سارت حملة بحرية من مسلمى الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب فى جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضى المجاورة . وفى سنة ١٠١٩م ، نزلت حملة مسلمة أخرى فى ظاهر أربونة ، وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفى سنة ١٠٤٧ ، هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة بالقرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر فى ذلك الحين زعيم أندلسى جرئ هو مجاهد العامرى أحد أمراء الطوائف ، وصاحب دانية وجزائر البليار ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار فى أسطوله إلى مياه كورسيكا وسردانية ؛ وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها ، (سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م) ، ولكن النصارى استردوها على الأثر [1] ؛ ولبث مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية « موجيه » أو موسكتوس ، مدى حين سيد هذه المياه يبث فيها بحملاته الرعب والروع

* * *

هذه هى قصة العرب والغزوات العربية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسره ، وهى قصة تغفل الرواية الاسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ؛ ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، وهذه الروايات هى عمدتنا فيما ننقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ؛ ولكنا نستطيع مع ذلك أن نتبين منها أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون فى تلك الوهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور

« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) ابن خلدون — المقدمة — ص ٢١٢